الفصل الرابع

القومية مرحلة التقنين والأيديولوجية

■القوميات الأوروبية الناشئة وبداية الفكر المقنن عند " بودان"(١٥٣٠ ــ ١٥٩٦م
■ الجدلية الهيجلية والإعلاء من معني الدولة(١٧٧٠ ــ ١٨٢١م)
■النزعة القومية تستولد نزعة العنف من أدب نتشة(١٨٤٤ ــ ١٩٠٠م)
■أمير هيجل وأمير مكيافيللي
■ ماركس وإنجلز هيجل مقلوباً [١]
■تكاليف الغلواء القومي
■ نحو صورة للحياة أقل سواء فى كوكبنا الأرضى

I

لم يكن يمكن أن تمضي الدول القومية الناشئة بوقود الثورة الجماهيرية العامة وحسب؛ بل احتاجت إلى من يضع لها فكراً محدداً مقنناً يجنبها الفوضى والتضارب أو مزيداً منه، وقد وجد من يقوم بهذا العبء واشتهر به **'جان بودان'** [٢] القانوني والسياسي الفرنسي.

ورغم أن بودان وضع الملك فوق القانون بوصفه واضعه بموجب تخويل ضمني من الشعب، ورغم التناقض الذي سيؤخذ عليه فى هذه المسألة، إلا أنه نظر للثورة نظرة علمية وبحث عن العوامل الطبوغرافية المؤثرة فيها فساعد بذلك على فهم معني الحدود الدولية وتحديدها.

وكذلك أعطي بودان لمفهوم المواطنة بعداً حديثاً نسبياً وإن لم يتجاوز المفهوم عنده كون المواطن مجرد رب عائلة، ليس عبداً وإنما تنتهي

---

[١] جان بودان (١٥٣٠ ــ ١٥٩٦م)
هيجــل (١٧٧٠ ــ ١٨٢١م)
نتشــة (١٨٤٤ ــ ١٩٠٠م)
ماركـس (١٨١٨ ــ ١٨٨٢م)

[٢] Jean Bodin 1530 - 1596

obeikandl.com

حريته السياسية بمجرد توقيعه على عقد انتخاب الحاكم ولذا عد بودان ماكيافيللي القانون كما عد ماكيافيللي (بودان) السطلة كما أومأنا صدد ماكياپيللى بالدراسة قبل.

I I

فإذا ما ظهر **'هيجل'**(١) متأثرا بالثورة الفرنسية وبالتجربة الديموقراطية الملكية البريطانية أعطي للدولة القومية قيمة عالية، إذ كان غرضه من فلسفته للتاريخ إظهار منجزات كل أمة عن طريق الجدل (الدياليكتيك) . نظر إلى الدولة ككيان يسمو فوق الأسرة والمجتمعات الأخرى إذ يذوب الكل فيه وينجو من التناقض، ويتم التوافق.

ورأي الدولة بسلطتها غير المحدودة تصير حرة تماماً من إرادة الأفراد وإنما تتحقق السيادة لها من الوحدة الضرورية بين مكوناتها وليس من التعاقد، ورأي أن الامتياز معقود للألمان بسبب هذا الفهم الخاص للحرية، وأن الشرق قد وقف عند فهم الحرية عن أنها حرية الفرد الواحد، وكذلك لم يتجاوز الإغريق فهم الحرية فى صورتها الخاصة بالبعض، أما الألمان فحريتهم حرية الجميع ممثلين فى شخص واحد مستبد تجتمع فيه

---

(٢) George Wilhelm Fridrich Hegel, 1770 – 1831

- يعتبر هيجل الذى متنا بذكر وجهه السياسى وأثره فى نتشة وماركس وانجلز : مبدءا لعدد آخر من من الأفكار التى ظهر أثرها فى بعض العلوم.

- من هذه العلوم علم النقد فى صورته عند "هيبوليت تين" Hippollyte Adolf Taine 1828- 1893 وعلم الاجتماع فى صورته عند "إميل دوركايم" Emile Dorkhaim وغيره فضلا عن المذاهب العديدة ومنها المذهب الوجودى.

ومن الوجهة الاجتماعية خاصة فإن أثر هيجل فى علم الاجتماع قد يعدل أثره الذى رأيناه بالمتن فى علم السياسة وتاريخ الأدب. وعلى الرغم من أن هيجل يعتبر متأثرا بالثورة الفرنسية وبالنظام البرلمانى الملكى البريطانى فى تكوين فلسفته فى التاريخ إلإلا أننا رأيناه مؤثرا فى الاجتماعيين الفرنسيين والإنجليز والأمريكيين أيضا.

وقد رأى هيجل خلافا لأستاذه طكانط" أن "الفكرة قائمة فى التاريخ ولا يتحقق إلا.... بالواقع(فى) حركة التاريخ"؛ وذلك أثر لملاحظته أحداث الثورة الفرنسية\ قبارى محمد اسماعيل/ قضايا علم الأخلاق: دراسة نقدية من زاوية علم الاجتماع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، فرع الإسكندرية١٩٧٨- ، ٢٤٤ التى وقفنا على بعض آثارها فى انجلترا ومصر أيضا.

وكذلك فقد دان هيجل بضلع مثلثه الأخير فى الدولة للبرلمانية البريطانية وحيث أعلى هو من شأن الدولة فى جدليته التثليثية فإن من تفاصيل ذلك قوله بأن الدولة "شخصية أخلاقية مقدمة" أو هى (وحدة ميتافيزيقية متعالية) تلتزم بالقيام بوظائف العقل والدستور كما تأخذ بالحكم الملكى المستنير القائم على العدل بالإشراف على السلطة التنفيذية ووضع القيود التى تحدد سلطان الملك المستنير(حيث يحقق الدستور والبرلمان حالة التوازن بين حاجات الدولة وحاجات المواطن)\ قبارى محمد اسماعيل/ قضايا علم الأخلاق .. ص ٢٥١، ٢٥٢

سلطة الدولة الهائلة واعتبرها إلها على الأرض. وقد سبق أن عددنا بعض دلائل عدم الكمال فى التجربة اليونانية فى مبحث "حضارة اليونان بين المبالغة والواقع" .

وكما فات المصلحين الدينيين أن يبينوا شروط صلاحية الحاكم القومي ولم يعصم بودان من التناقض فى أصل مفهوم السيادة والشرعية والحرية غفل هيجل عن بيان ضمان صحة افتراضه بسمو الحاكم الفردي القومي عن التعسف والهوى واكتفي بالقول بأن المستبد يستمد سلطته من تقمصه روح شعبه.

فلذلك اضطر هيجل إلى القول بضرورة وجود سلطة تشريعية لفئة من المواطنين (الفلاسفة) شريطه أن تقتصر مهمتهم على البحث فى المسائل الداخلية وحدها، وألمح إلى ضرورة وجود سلطة إدارية تخضع هي الأخرى لسلطة الحاكم المستبد.

ومن الواضح أن هيجل يستخدم الجدل بطريقة تخدم أغراضه الخاصة، ولا يسير مع منطقه حتى النهاية[1] وعلى طريقته فى تقسيماته التثليثية جعل الدولة ثالث ثلاثة : الأسرة والمجتمع، ثم المجتمع المدني. فالأولي هي أطروحته الجدلية Thesis والثاني هو النقيض Anti Thesis وثالثهما هو المجتمع المدني Synthesis،

وهو مثلث ألغي به مفهوم الدولة العالمية وأحل محله مفهومه هذا للدولة القومية إلى غير ذلك، واعتبر الدولة بهذا نهاية التاريخ وهدفه، ولذلك وضع دولته القومية فوق القانون، وفوق أي نقد أخلاقي، وجند الفرد لتحقيق أغراض زعيمه تجنيدا لا فِكاك له[2].

---

[1] الفكر السياسي الغربي ص٣٧٨

[2] ينظر أيضا كتاب " قضايا علم الأخلاق " – دراسة نقدية من زاوية علم الاجتماع. د. قباري محمد إسماعيل – ط٢ – الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٨م ص٢٥١.

- الشائع لا فِكاك منه ، والمعجمى لا فكَّ منه ، باعتباره قيدا أو غُلا ، بمعنى لا إفلات أو حلّ ؛ وإلا فكما ذكرنا ، على معنى لا شيء أو مال يجدى فى إطلاق سراحه . والفِكاك : فِكاك الرهن والأسير (الوسيط ، مثلا.

▲وهكذا فقد نظر هيجل إلى التجربة التى أقيمت للعقل الأوروبى من مرقبه الذى وصفناه فى الجزر البريطانية النائية على أنها المثل الأعلى للنظم الدستورية فى العالم . ورغم ما اتسم به نظر هيجل إلى الدولة من سمة الولاء والإجلال المتحضرة حقا فإنه بسبب المبالغة التى داخلت دعوته كان ما صدره هيجل إلى الفرنسيين والبريطانيين والأمريكيين من منطلقه المثالى العقلى نظرا مدابرا للدين والفلسفة فى مجال البحث الاجتماعى والأخلاقى أيضا أو لعل مدابرة الدين هى التى أدت إلى هذه المبالغة ذاتها.

I I I

وحقنت **هذه النزعة** فى أدب 'نيتشة' [1] فأدخل على الفكر الإنساني نغمة الإرادة والقوة والسيطرة والعنف . وكتابه " هكذا تكلم " زارادشت Thus Spake Zarathustra فيما نقد – تظهر بين ثناياه فكرة السوبرمان والدعوة إلي الاستعلاء والعودة السرمدية فى شبه دين جديد (بشر) به نيتشة باسم 'زاردشت' .

ورغم أن أوضح تأثير لنيتشة كان فى الفلسفة الوجودية إلا أنه قد كان ذا أثر كبير فى ميادين الفكر الغربي بعامة [2] ، و (بهجيل) و نيتشة يظن أن الفكر الغربي المعلن بلغ ذروة التعصب وأرهص لوقوع الحرب العالمية الأولي.

ذكر 'روى باسكال' Roy Psscal مقدم الترجمة الإنجليزية لديوان " نتشة " ذي الأقسام الأربعة الدرامية المسهبة Thus Spake Zarathustra أن أعمال نتشة صارت قانون عمل الكارثة للحركات السياسية (فى الغرب) وأنه صار قرآنا إجبارياً للاشتراكيين القوميين

---

[1] F.Netzeche 1844 – 1900

[2] بين العبقرية والأمراض النفسية – بقلم د. فخري الدباغ – العربي – عدد ١٧٣ ص ٤٦-٥٥

- ويراجع تقديم J. Fridricho w. nietzeche \ لكتاب , Thus Spake Zarthustra Translated in English By . A.Tille-Isbn : 0 460 01892 2 . ، وهو مؤلف من قصيدة مسهبة فى أربعة أقسام رئيسية .

- ومأخذنا عنه صدد المعري فى كتابنا " أبو العلاء المعرى ونظرة جديدة إليه، دار المطبوعات الجديدة، ١٩٩٣، مج١ ص٢٨٢، وبنفس الجزء فيما أشرنا أيضا هـ ص١٥٩

قدمه طاغية بعد آخر[١].

ويجنح النقد الغربي فى غالبة إلى تشديد النكير على نتشية فى ذلك والتشديد نفسه واجب على الفكر الاستعماري الناهض على أنقاض ألمانيا وتركيا القيصريتين بعد كارثة العالم الأولي ١٩١٤ – ١٩١٨م ، كما يدل الفصل الثاني من الباب الرابع من هذا الكتاب ، والفصل الأول من رسالتنا فى تطور النقد والتفكير الأدبي...

لكننا نجد فى ذلك النقد الغربي ما يدلنا أيضاً على أن الأساطير والمآسي اليونانية – وهي شركة خاصة فى الغرب الحديث كانت مصدر نزعة اللاعقلانية والإرادة والحرب، وإن خصصها النقد الغربي بفترة الاستعلاء القيصري وأغمض عينه عنها فترة الاستعلاء الاستعماري المقنع .

قال روي باسكال : إن فهم نتشة للقوي الغريزية اللاعقلانية فى داخل المأساة اليونانية كان له تأثير عميق فى التصور الحديث لليونان، وما يزال هذا التأثير قرين فهم نتشة بأن الفن الجحجاح يبني فى الإنسان قوة يصعب احتمالها (دائماً) وهو فهم يتجاوز اعتبار الفن محض مقولات جمالية ويقحمها على العيش نفسه[٢].
ولا اعتبار لنا بقول ' روى باسكال' بأن الإرادة عند ' نتشة' ليست إرادة تحرر، وأنها هي القول الأعظم بإحساس الضرورة الغريزي، أو الإحساس بالشخصية [٣] لأننا حملنا بعض العلمانية الغربية وليس فى جملتها وكذا الفكر الاستعماري – ولاسيما البريطاني – المسئولية عن إثارة النزعة الألمانية والنزعات الهدامة فى عمومها، هذا إلى تعمية باسكال على المغزى من اتجاه نتشة إلى الشرق ومن نقده المسيحية الكنيسة بصورتها الغربية.

IV

---

[١] المقدمة.
[٢] P. v11.part 3, From Attack on Morality
[٣] P. x1. part 2

لم **يختلف أمير هيجل عن أمير ماكيافيلي** إلا (مغايرة) بالاصطلاح البلاغي العربي، بينما قال سابقهما بالطبيعة الهمجية فى الإنسان، افترض اللاحق فيه الكمال أو إمكانية بلوغه ورغم أن كلاً الأميرين عندهما مستبد نظرياً إلا أنه لم يكن لأيهما أن ينكر حقيقة وجود سلطات ثلاث فى الدولة، وكلا الرجلين – وإن مثلا طرفي نقيض إلا أنهما اتفقا على تطليق الاعتدال أو النظر الديني فى أمر الإنسان .

*ولعل مثلثنا التالى للسلطات الثلاث ، الموجب لعد الشورى أو البرلمان هو الضلع القاعدة فيه يقربنا من فهم إجرائى للديموقراطية ، يختل بالإخلال بوضع السلطات فى المثلث نفسه ، كما نبهنا ضمنا منذ الفصل الأول للدراسة [1] ؛ وبه مشروحا بتفصيل وتوثيق مختتم الكتاب.

مثلث السلطات الثلاث فى الدولة الديموقراطية الحديثة		
السلطة التنفيذية (الحكومة)	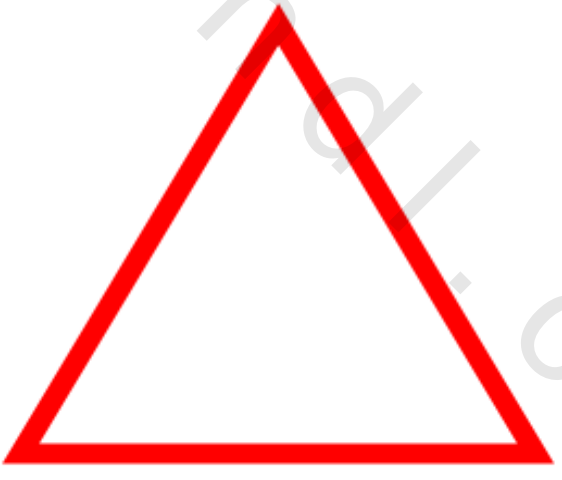	السلطة القضائية
	السلطة النيابية للتشريع والرقابة	

[1] - تصحيحا على ص ٢٣ ط ٢٠٠٦م

V

ولا يكاد مذهب **' كارل ماركس' و 'إنجلز'** يختلف فى جوهره عن مذهب 'هيجل' أيضاً إلا باستخدامه مقلوباً . كان هيجل يري تطور التاريخ من العقل إلى المجتمع فجعلا الأصل فى التطور هو المادة، وجعلا المجتمع والعقل نفسه متطوراً عنها .

وبدلاً من عد الدولة المونـاركية المستبدة نهاية التاريخ حتما هلاكها ورأيا الدوام ماثلا فى حركة المادة الدائمة لا غير، وربطا قيمة الإنسان بقيمة ما يحققه من نفع مادي عن طريق العمل المباشر.ووفقا لمنطق ماركس، بما أن السلعة تساوي كم عملها إذاً الربح أو فائض القيمة الذي يعود على صاحب رأس المال، نهب لا سبيل إلى بقائه على التطور.

وقد رأي الدائرة تدور على أصحاب رؤوس الأموال الصغيرة فينضمون إلى صفوف الشغيلة، فيزداد عدد العمال فى المجتمع، ووجد أنهم يمثلون العوز المطرد فى مقابل الثراء المطرد فيتحتم الصدام الذي يؤدي حتما إلى انتزاعهم السلطة وتأميم المرافق ويتناول كل قيمة عمله كاملة.

وقد رأي أن ما يناله العامل وإن كان لن يحقق له البذخ والسعة فسوف ينقذه من العوز وتحكم صاحب العمل لذلك أوعز إلى الشغيلة بتصفية البرجوازية كل فى دولته أولا ، لتهيئة الطريق لآمالها الإنسانية الأعم ، زاعماً – كما سنشير – أن البرجوازية هي التى صنعت أدوات قتلها بنفسها وقامت بلحامها بيدها هي[١].

وطبيعي أن حكم طبقة العمال للدولة يخرج بها عن كونها دولة قومية ويدخلها فى عداد الدول الاشتراكية أو الشيوعية ولذلك لم يبحث " ماركس أو إنجلز القضية داخل هذا الإطار، وإنما تنبآ بتطور الدول الاشتراكية إلى دول شيوعية يحكمها العمال الذين يلتقون فى المذهب مع عمال سائر الدول فى ظل عالم من العدل والمساواة والسلام. ومنطق ماركس هنا يعادل فى تطرفه منطق 'إدموند بيرك' الرأسمالي الذي نقف

---

(١٠) Karl Marx 1818 – 1883 & Fridrich Engels 1820 - 1895

عليه فى الفصل الثالث من الباب الثانى .

VI

وواقع الأمر أن غلواء فلاسفة الدول القومية وزعماءها كبدت البشرية عناء ودما كثيرا: بلغ المسفوك منه فى القرن العشرين وحده المسفوك منه فى قرون عديدة خلت، وكذلك بددوا من الموارد والطاقات والنفقات وما قوم بالبلايين وعزيت إلى كل ذلك مظاهر البؤس والعناء والمجاعات والتضخم فى العالم المعاصر رغم تقدمه العلمي الهائل (١) .

VI I

ولكنه لما كانت الشيوعية مجرد نقيض متطرف للفلسفة القومية ذاتها، فقد مست الحاجة إلى أن يجتهد مصلحون جدد فى سبيل إيجاد **صورة من الحياة تكون أقل سوءاً** مما هي عليه الآن فى كوكبنا الأرض، ولا معدى عن أن يعقد الأمل على فلسفة إنسانية عامة غير شكلية تكون مادتها متوافرة فى التاريخ الإنساني نفسه.

وقد قدمنا وجازة معالم هذه الفلسفة فى (التيار الإنساني الأخلاقي) فى الشرق والغرب دون تفرقه ، بعد ما اختبرنا من خصائص (التيار البشري العلماني[٢] وقيام الدول القومية فى أوروبا أو فى الغرب وحده.

ولعلنا نختم بوقفة أو بالإغراء بوقفة على ما سميته فى الباب الرابع: أقسام الكتاب "القومية المحافظة فى الشرق" قبل أن نخرج إلى خلاصة جامعة لآفاق الفكر السياسى فى حوضنا المتوسط قديما وحديثا.

- ومطرد القضية بكتابنا الموسع "قضايا..." ، هـ ٣٤، ٢٠٦، ٢٩٩

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للسيد أبو الحسن على الندوي – ط٧ سنة ١٩٦٧ – دار الكتاب العربي – بيروت ص٢٠٤

(٢) استخدمت مصطلحي " التيار البشري " و" التيار الإنساني " فى بحثي لأدل على ما يشيع فى الغرب إطلاقه على فكر عصر النهضة كله السياسي والعلمي والتجاري، ويمثله هذا القسم وخصصت الثاني بما رأيت أنه اليق به من روح أخلاقية وأدبية أو شعورية أشمل لم يخل منها التاريخ الإنساني فى جملته ولم يعدمها عصر النهضة البشرية المذكورة نفسه وقد خصصت به القسم (٧) من هذا الكتاب، ولم أخض فى مدلولات اصطلاحية أخري للإنسانية منبثة فى بعض مدارس أدبية أو فنية مضيقة.